التشكيل الفني للإطناب في النص القرآني

ـ مقاربة في المفهوم والأدوات ـ

أ . عبد اللطيف حني*

بسط منهجي :

لقد أودع الله تعالى في الخطاب القرآني كل أنواع الإعجاز ، وتحدى به أساطين القول وفنونه ، فلا نكاد نجد بليغا في العربية إلا وطعم من مائدة القرآن الكريم زادا من البيان المبهر الأخاذ ، فسحرته تراكيبه ، وهام في بلاغته التي أغرت الكثير من الدارسين فراحوا يقلبون الفكر في جمالية آدائها ، ودقة تراكيبها .

كما نال الإعجاز البلاغي شديد العناية والرعاية من الدارسين ، ففصلوا في موضوعاته وأبحروا في قضاياه ، ومما شد انتباههم آيات الإطناب التي استوقفت البلاغيين واللغويين ، لهذا تسعى هذه المداخلة المتواضعة إلى دراسة الإطناب في الخطاب القرآني ، ولأن موضوع الإطناب في الخطاب القرآني شاسع وموضوع كثيف العباب يستحق أبحاثا معمقة وجهودا جبارة لدراسته واستقصائه وتلمس جمالياته ومقاصده وشريف غاياته ، لهذا سأطرق باب من أبواب الإطناب وهو إطناب البسط ؛ لأنه خاصية من خواص إعجازه وملمح من ملامحه ، وسمة من سماته ، حيث يؤدي دورا هاما في توجيه الخطاب ودلالته وشرحه وتعليله للقارئ ولكي يتغلغل في عقله أولا ثم قلبه ونفسه التي تغدق عليه حبا واحتراما وتقديسا ، فقد كان متأرجحا بين الإيجاز تارة والإطالة أخرى على حد تعبير الجاحظ .

على هذا الأساس ستعتمد الدراسة في الحديث عن إطناب البسط على ثلاثة محاور :

---

* المركز الجامعي بالطارف .

1 ـ مفهوم الإطناب وأقسامه .

2 ـ الأدوات الفنية لإطناب البسط :

أولاً ـ التتميم .

ثانياً ـ التكميل .

ثالثاً ـ الزيادة .

3 ـ جمالية إطناب البسط .

1ـ مفهوم الإطناب وأقسامه :

صنف الإطناب في بلاغتنا العربية على أنه عيب من عيوب الكتابة ، وقفر في اللغة ، ونقص في إمداد المعاني ، وعجز عن إنجاد البنية البلاغية للنص ، وعده الكثير من الدارسين اختراق لقواعد الفصاحة والجودة الأدائية ، ودعوا إلى الإيجاز فهو لب وجوهر البلاغة ، لكن رغم ذلك فقد حظي بالتعريف والشرح والتوضيح من الناحية اللغوية والاصطلاحية فأما اللغوية؛ فقد تناولته العديد من المعاجم العربية بتوضيح دلالته الغوية فنجد من المعاجم القديمة كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني (ت188 هـ) الذي يقول : « الطناب : السير الذي يربط في رأس وتر القوس ، وهو الإطنابة »(1) نلاحظ أن هدا الشرح قد ابتعد عن الدلالة الاصطلاحية للإطناب ن وابتعد في محاولة رسم مفهومه الذي نحن في صدد البحث عنه .

غير أننا نجد من حاول من القدامى أن يقارب بين معناه اللغوي والاصطلاحي ومنهم الزمخشري في كتابه أساس البلاغة ، حيث حاول التفصيل في معنى اللفظة أكثر ممن سبقه الشيباني ، حيث يقول في مادة (طنب) : « هو من أهل الأطناب والأطانيب . وهو جاري مطانبي ، وحي متطانب ، . وفي كلام بعضهم : قد طانبتهم في المحال وسايرتهم في النجع وحضرت معهم وبدوت . وبيت مطنب . وطنب خباءه . » (2) . فهنا معنى (أطنب) جاور؛ فهو جارى مطانبى ، وطانبتهم في المحال أي : جاورتهم وكنت فيهم ، أما البيت المطنب ، الخباء المطنب ، يقصد به المقام الفسيح الواسع ، المشدود بالحبال الطويلة .

و يدنينا الزمخشري أكثر من المعنى الاصطلاحي للإطناب وخاصة عندما يواصل شرحه للمادة فيقول : « وأطنب في الأمر . وفرس أطنب :

طويل الظهر ، وفيه طنب وهو عيب . »(3) ويقصد بالإطناب في الأمر أي التطويل فيه وكذلك طول ظهر الفرس فهو فرس أطنب ، وقد عده العرب عيبا ، نلاحظ اقتراب الزمخشري من المعنى الاصطلاحي وخاصة حين يضيف في نفس المادة فيقول : « هذه شجرة طويلة الأطناب وهي العروق وقوله : « ولي حاجات أطانيب : طويلة كثيرة لا تكاد تنقضي . وغارات أطانيب : متصلة لا آخر لها . قال ابن هرمة : شطت وفي النفس مما لست ناسيه . . . هم بعيد وحاجات أطانيب

وقال الفرزدق : وقد رأى مصعب في ساطع سبط . . . منها سوابق غارات أطانيب »(4)

و يعقد الزمخشري الصلة بين المعنيين المعجمي والاصطلاحي للإطناب فيقول « وطنب بالبلد : أقام به . وجراد مطنب : كثير . ونهر مطنب : بعيد الذهاب . » (5) فالمكوث في البلد تعني إطالة التواجد غيه ، وكذلك جراد مطنب كثير ، ونهر مطنب بعيد المسافة ، أي طويل .

أما صاحب لسان العرب ابن منظور فإنه يورد مادة (طنب) تفصيلا جميلا يثلج الصدر مستفيدا بمن سبقه بجمع شواهد وأدلة جديدة فيقول : « لأَطْناب الطوالُ من حِبال الأَخْبيةِ والأُصُر القِصار واحدها إِصار والأَطْناب ما يُشَدُّ به البيتُ منِ الحبالَ بِين الأَرض والطرائق ابن سيَده الطُّنْبُ حبل طويل يُشَدُّ به البيت والسُّرادق بين الأَرضِ والطرائق وقيل هو الوَتِدُ والجمع أَطنابٌ وطِنَبَةٌ وطَنَّبَه مَده بأَطنابه وشَدَّه وخِباءٌ مُطَنَّبٌ ورواقٌ مُطَنَّب أَي مشدود بالأَطْنابِ وفي الحديث ما بينِ طُنْبَي المدينة أَحْوجُ مِنَي إِليها أَيِ ما بين طَرَفيها والطُّنُب واحدُ أَطناب الخَيْمَة فاستعاره للطَّرَف والناحيَة والطُنُبُ عِرْق الشجر وعَصَبُ الجسَد» (6) ، ويضيف ابن منظور ليقترب أكثر من المعنى الاصطلاحي : « وعَسْكرٌ مُطَنِّبٌ لا يُرَى أَقصاه من كثرته وجَيْشٌ مِطْنابٌ بعيدُ ما بين الطَّرَفين لا يَكاد ينقطعُ قال الطِّرِمّاح:

عَمِّي الذي صَبَح الحَلائبَ غُدْوَةً . . . من نَهْروانَ بجَحْفَلٍ مِطنابِ» (7)

و يفهم من حديثه عن الأطناب والطنب معنى الطول والكثرة ومعنى التطرف والبعد ، والكثرة والمبالغة في العسكر والجيش والجحفل ، ليقترب بنا أكثر للمصطلح المستعمل بلاغيا .

إن جهد ابن منظور قد أثمر في تقريب البلاغيين من المعنى

الاصطلاحي للإطناب فيما بعد ، مما دفع صاحب التعريفات إلى إقرار ما استقر عليه المصطلح فيقول : « الإطناب : أداء المقصود بأكثر من العبارة المتعارفة وأن يخبر المطلوب بمعنى المعشوق بكلام طويل ، لأن كثرة الكلام عند المطلوب مقصودة ، فإن كثرة الكلام توجب كثرة النظر . . . وقيل : الإطناب أن يكون زائدا على أصل المراد »(8)

أما صاحب القاموس المحيط فلا يبتعد عن ابن منظورٍ في معنى الطول والكثرة والبعد ، حيث يقول في فصلِ الطاء : « الطُّنُب ، بضمَّتَينِ حَبْلٌ طويلٌ يشَدُّ به سُرادِقُ البَيْتِ ، أو الوَتِد ، ج أطْنابٌ وطِنَبَةٌ ، وسَيرٌ يُوصَلَ بِوَتَرِ القَوْسِ ثم يدار علي كُظرِها ، كالإطْنابَةِ ، وعَصَبَةٌ في النَّحْرِ . . . وأَطْنَبَتِ الرِّيحِ اشْتَدَّتْ في غبار ، والإبِل اتَّبَعَ بعضُها بعضاً في السَّيْرَ ، والنَّهْرِ بَعُدَ ذَهابِه ، والرَّجُل أتى بالبَلاغَةِ في الوَصْفِ ، مَدْحاً كان أو ذَمَّاً . والمطْنَب ، كمَقعَدِ المنْكِب ، والعاتِق . وجَيْشٌ مِطْنابٌ عظيمٌ . وتَطنيب السِّقاءِ تَطْبيبه . وجاري مطانِبي طُنُبُ بَيْتِهِ إلى طُنُبِ بَيْتي . » (9) كما نلاحظ أنه جمع المعنى المعجمي والاصطلاحي في قوله عن الرجل إذا أتى بالبلاغة في الوصف ، وربما أراد بالبلاغة هنا المبالغة في المدح أو الذم ، مما يضع أيدينا على التقريب بين الكلمة (إطناب) لما وضعت له لغة واستخدمت اصطلاحا .

بعد عرض هذه الجهود المعجمية اتضحت بفضلها صورة مصطلح الإطناب واستقرت لدى البلاغيين وصار استخدامه أحد مصطلحات علم المعاني ، ويعد الجاحظ أول المتكلمين عنه بمعنى الإطالة ، وبنفس الوتيرة تبعه معظم البلاغيين القدماء ففصلوا فيه ومدحوه على أساس الحاجة إليه يقول الرماني : « فأما الإطناب فإنما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل» (10) ويضيف أبو هلال العسكري : «المنطق هو بيان والبيان لا يكون إلا بالإشباع والشفا لا يقع إلا بالإقناع وأفضل الكلام أبنيته وأبنيته أشده إحاطة بالمعاني ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء والإيجاز للخواص ، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة والغبى والفطن والريِّض والمرتاض»11) .

أما الصيرفي فيعرف البلاغة بقوله : « هي الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل» (12) أما السجلماسي فيعرفه بأنه : « ترديد اللفظ الواحد بعينه وبالعدد أو النوع» (13) . أما ابن القيم الجوزية فيخصص بابا

كاملا للإطالة والإسهاب وهو يعني الإطناب متأثرا بالقدماء فيقول : « فحقيقته لغة الزيادة والمبالغة وأما حقيقته الصناعية فهو زيادة في اللفظ لنقويه المعنى » (14)

و توحدت نظرة القدماء للإطناب مع اختلاف في توظيف المصطلحات الدالة عليه أما حده عند المحدثين فقد اعتمد على ما وصل إليه القدماء ولم يزيدوا عليه شيئا ، ولم يضيفوا إليها سوى إضافات قليلة رصدها ممن دققوا النظر في أسلوب القرآن الكريم ، حيث كشفوا أسراره وبينوا جواهره فنجد صاحب علوم البلاغة يفرق بين الإطناب والتطويل والحشو ، ويسوق ملمحا يتصل بالإطناب ومفهومه فيقول : « قد يوصف الكلام بالإيجاز والإطناب باعتبار كثرة حروفه وقلتها بالنسبة إلى كلام آخر مساو له في أصل المعنى » (15)

و من البلاغيين المحدثين الذي تحدث عن بلاغة الإطناب الإمام محمد أبو زهرة حين قسم الكلام قسمة أطلق عليها القيمة العقلية المتكونة من أربعة أركان وهي الإيجاز ، والتقصير ، والإطناب ، والتطويل والإطناب عنده « أن تكون المعاني كثيرة والألفاظ كثيرة لا حشو فيها » (16) . أما د . بكري شيخ أمين فيلبس الإطناب ثوبا جديدا ويجعله يصب في مجرى المساواة التي يقصد بها موافقة المعاني لمقدار الألفاظ لا يزيد بعضها على بعض » (17)

و يورد د . مجيد عبد الحميد الفرق بين الإطناب والتطويل في البلاغة ودواعيه فيقول : « و قد فرق البلاغيون ــ وهم على حق ـ بين الإطناب المحمود في البلاغة وبين التطويل الذي يفقد النص قيمته وحيويته وقدرته في التأثير والإثارة ، واعتبروه من عيوب الكلام . وذلك لأن بسط الكلام والإطناب فيه لا يكون حسنا وفي المقام الذي يقتضيه ، إلا إذا كان لفائدة يجنيها الملتقى من خلاله ويستفيد منه ، وإلا إذا خلا من الحشو الزائد عن المطلوب ، وذلك لأن إطالة الكلام في حد ذاتها تورث السأم والملل ونجهد المتلقي ، ولا يلجأ إليها إلا لضرورة ودواع نفسية أشرنا إليها ، وإلا فإن النفس تنفر من كل ما يجهدها » (18) .

ويتبع د . درويش الجندي القدماء في تعريف الإطناب ، وفي التفريق بينه وبين التطويل والحشو ، ويسوق نفس شواهدهم ويمتدح الإطناب في موضعه فقول : « لكن مع ذلك فإن الاتجاه العام عند نقاد العرب أنهم

يفضلون الإيجاز فهو حد البلاغة لدى كثير من النقاد والبلغاء في الأدب العربي منذ أقدم العصور» (19) .

كما يفرق د . أحمد مطلوب بين الإطناب والتطويل ، فينظر له بعين البلاغة فيقول : «و التطويل من المصطلحات التي تتردد وقد ذم بعضهم هذا الأسلوب» (20) . كما يقر د . عبد القادر حسين ميل القرآن الكريم للإطناب فيقول : «و القرآن الكريم في كثير من سوره يميل إلى الإطناب كما هو الشأن في كثير من السور التي يميل فيها إلى الإيجاز ، ولم كان الإطناب مكروها عند العرب في هذا العصر لما أتى به القرآن الكريم» (21) .

يرى د . مصطفى الصاوي الجويني في الإطناب التوسيع بالتفصيل ، أي ترك الطريق الأقصر إلى الطريق الأوسع في عرض القضايا ، وخاصة في القرآن» (22) ويبين أحمد النادي شعله أغراض الإطناب فيقول : «و للإطناب دواع كثيرة موزعة على طرقه وأساليبه المختلفة منها : تثبيت المعنى وتقريره وتوضيح المراد ودفع الإيهام والتوكيد والدعاء والتنزيه وإثارة الحمية وإظهار الشوق وغير ذلك »(23) .

نستنتج من خلال ما سبق أن مفهوم الإطناب عرف استقرارا واضحا لدى البلاغيين قديما وحديثا ، ويصب في كثرة الألفاظ المعبر عنها ، وعن معنى أو قضية ما مع صغر القضية المعبر عنه أو قلة المعنى كما «لا تكون الزيادة في اللفظ عن عي . كما لا تكون القلة في المعنى عن عجز ، وإنما يتعمد المتكلم هذه الإطالة في اللفظ مع القلة في المعنى ليحقق غرضا من أغراض الكلام ، أو ليسوق عظة من العظات ، أو لمراعاة أحوال السامعين الذين لا يصلح معهم تقليل اللفظ ، ولا يحقق فيهم ذلك الإفهام الذي يرجوه المخاطب لدى المخاطب» (24) .

و أقسام الإطناب في القرآن الكريم عموما حسب إجماع اللغويين والبلاغيين إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول إطناب الإيضاح ويندرج تحته ذكر الخاص بعد العام وذكر العام بعد الخاص ، الإيضاح بعد الإبهام والتوشيع ، أما الباب الثاني فهو إطناب التأكيد ويندرج تحته التكرار والإيغال ، والاعتراض والاحتراس ، والتذييل ، أما القسم الثالث فهو موضوع مداخلتنا وهو إطناب البسط ويندرج تحته التتميم ، والتكميل والزيادة في الجمل المستخدمة .

2. الأدوات الفنية لإطناب البسط في النص القرآني :

وظف الإطناب في القرآن الكريم أدوات أو طرقا ــ إن جاز لنا التعبير ـ مختلفة لكي يبسط المعاني ويوضحها ويقربها من المتلقي ، وحتى يظهر الخطاب لا غبار عليه جليا واضحا لا يحتمل التأويل ، كما طمح هذا الخطاب المعجز إلى غايات أسمى وأنبل من مجرد نظرتنا البلاغية فالبسط لغة هو النشر نقول « بسط الثوب والفراش إذا نشره . ومن المجاز : بسط رجله وقبضها » (25) أي الفرش والخفض والطرح وأما اصطلاحا هو الشرح والتفصيل نقول بسط في حديثه أي فصل وأسهب وأكثر في التفصيل ، لذلك البسط هو غاية الإطناب أو صورته البلاغية ، وقد ورد في الخطاب القرآني بصور وأشكال عديدة أطلقنا عليها أدوات ، سنحاول إن شاء الله جمعها وشرحها وضرب أمثله عنها من القرآن الكريم وهي :

أولاً : التتميم :

التتميم لغة هو الإكمال والتتمة نقول « هذه دراهم تمام المائة وتتممتها ، وقد تممت المائة تتمة »(26) أما اصطلاحا هو أن يذكر الشاعر المعنى « فلا يدع من الأحوال التي تتمم بها وتكمل معها جودته شيئا إلا أتى به» (27) وأظهره وبينه « فما تمت جودة المعنى إلا بقوله : وإلا كان المعنى منقوص الصحة» (28) . فالتتميم أن يذكر الشاعر معنى ، ولا يغادر شيئا يتم به إلا أتى به واستحضره وشخصه فيتكامل له الحسن والإحسان ، ويبقى البيت ناقص الكلام ، فيحتاج الكلام إلى ما يتممه به من كلمة توافق ما في البيت من تطبيق أو تجنيس ، وهذا ما يراه صاحب الصناعتين حيث يقول : « أن التتميم هو توفية المعنى حظه من الجودة وإعطاؤه نصيبه من الصحة ، وألا يغادر المتكلم معنى يكون فيه تمامه إلا أورده ، أو لفظا يكون فيه ذكره » (29) ومن التتميم الحسن قول الخنساء :

و إن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقولها (في رأس نار) تتميم استوفى به المعنى حتى وصف العسكري الخنساء بأنها استوفت المعنى استفاء لم يستوفه احد مثلها .

و قد اهتم المحدثون بالتتميم وأعطوا حده ، يقول صاحب فن البلاغة : « سمي بذلك لان مغزى الكلام لا يتم به ، فينكشف جوهر الكلام

والقصد منهن وتنجلي صفاته وأحواله ، ولو أنك طرحت هذه الألفاظ التي تدل على التتميم ، لكانت الألفاظ تامة في دلالته على المعنى ، إلا أنها تقصر عن إيصال المغزى المقصود من وراء هذا المعنى » (30)

و قد ورد التتميم في الخطاب القرآني ، ليبين بلاغته ويدل على إعجازه ويرد على مختلف الشبه التي دارت حول الإطناب ، فقد ورد في حوالي سبعة وعشرين موضعا ، استطاع إن يصنفها د . مختار عطية في سبعة أغراض جاء لأجل خدمتها وبيانها :

1 . بيان العاقبة :

و يرد التتميم بهدف بيان العاقبة لفرد من الأفراد وقوم من الأقوام ، وسواء أكانت العاقبة خيرا كقوله تعالى : ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾(31) ويظهر هذا التتميم ضمن السياق عاقبة إبراهيم ـ عليه السلام ـ إذ منّ الله عليه بخيرات ورزقه ذرية النبوة فقد أتاه الله خيري الدنيا والآخرة ، أم العاقبة شرا كما ورد في قوله تعالى : ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾(32) فقد بين بالتتميم بقوله ﴿**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ عاقبة الكافرين ففضح أمرهم وكشف سرهم ؛ إذ مثل الله تعالى استبدال المنافقين الضلالة بالهُدى بأنها تجارة غير رابحة ، وذلك من قول العرب فالتجارة لا تربح إنما يُربَح فيها ، وهذا على المجاز ، وقد علل الشريف الرضي ذلك بالاستعارة حيث يقول : « و هذه استعارة والمراد أنهم استبدلوا الغي بالرشاد والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم وإنما أطلق ـ سبحانه ـ على أعمالهم اسم التجارة لما جاء في أول الآية بلفظ الشراء تأليفا لجواهر النظام وملامحه بين أعضاء الكلام» (33)

و قد أفاد التتميم العجيب الرائع أن هؤلاء المنافقين قد خسر بيعهم ، وبارت تجارتهم ، فلا ربح لهم في الدنيا لأنهم مذمومون ، وفي الآخرة مدحورون في جهنم وما كانوا مهتدين فأفاد ذلك التتميم أنهم ضالون في جميع أعمالهم .

2 . الحث على الطاعة :

و يرد التتميم للحث على الطاعة والترغيب في التمسك بها في قوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ**

آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾(34) فقوله تعالى (يُؤْمِنونَ بِهِ) تتميم لأن إيمانهم معلوم ، وإنما أراد الخطاب تبيين شرف الإيمان ، وعالي الشأن والحث عليه والتعلق بالله .

و منه قوله تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(35) فقوله تعالى : (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ) فيها تتميم ، حيث ألزم مصرف النفقة بحبها ومن أعز ما يمتلك ، من قبل المنفق حتة تتوافر لها المنزلة والمكانة الرفيعة عند المولى عز وجل ، وقد جعل القزويني هذه الآية شاهدا على التتميم ، فقال : « أي مع اشتهائه والحاجة إليه »(36) أيده الزركشي وتبعه السيوطي .

و منه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾(37) التتميم هنا على رأي أبي هلال في قوله (فَاسْتَقِيموا إِلَيْهِ) ففيه حث على الاستقامة لأوامر الله تعالى .

3 . التأكيد :

يرد التتميم تأكيد لخطاب الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(38) ورد التتميم في (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا) فقد علم الله تعالى أنه إذا لم يصف اللحم بالطراوة لم يفهم له الفساد ، لكن المعروف أنه أقرب للحم الطري من غيره ، فوصفه كذلك ليسارع لأكله ، وفي التتميم هنا غاية تعليمية هي أن اللحم لا يأكل إلا طريا أن أكله بعد ذهاب طراوته أشد ضررا .

4 . الاحتراز :

يرد التتميم في القران احترازا من فهم على غير المقصد ، فيرد التتميم ليصوب ويصحح ذلك ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(39) بقول الله تعالى (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) كمل المعنى ، وقد احترز بهذا التتميم أن يظن أن المؤمنين التاركين للطاعات يدخلون الجنة ، فيجب الجمع بين الإيمان والاستقامة .

و قوله : ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(40) فقوله (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) تتميم حسن حيث تمم عمل الذكر والأنثى بالإيمان . وقد أفاد أيضا أن يفهم أيضا احترازا من أن يفهم أن عمل الصالحات وحده موجب لدخول الجنة ولكن جاء ليقرن العمل الصالح بالإيمان .

5. المبالغة في التصوير :

من بلاغة التتميم انه يرد مبالغا في تصوير الحال أو الموقف الذي تتناوله الآية ، ومن قوله تعالى : ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(41) ورد التتميم في (فِيهَا صِرٌّ) أفاد المبالغة والتجسيد والتشخيص .

6. التخصيص والشمول :

كما يرد التتميم تخصيصا وشمولا فمن الشمول قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(42) إذ لو كان الاقتصار على قوله (رَبِّ احْكُمْ) لكان المعنى ناقصا ، ورد التتميم شمولا للحكم بحيث يشمل الحق فلا يكون الحكم إلا به ، ومن التخصيص التتميم في قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(43) ورد تتميمان أحدهما قوله تعالى (مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) وهو اشتمال لكل البشر والثاني (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) تخصيص بالتصديق بثواب الله .

7. التعظيم والتنزيه :

و قد ورد هذا الغرض في تتميم واحد من تتميمات القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(44) ورد التتميم ليعظم الله تعالى إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء (يَأْتِ بِهَا) وفي (فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) تتميم يزيد عظمة الخالق ، فلا يعلم ما في الصخور إلا الله .

ثانياً : التكميل :

يعد التكميل من أدوات إطناب البسط في القرآن الكريم ومعناه لغة « كمل الشيء وتكامل وتكمّل ، وأكملته وكملته واستكملته . ورجل كامل :

جامع للمناقب . . . وأعطاه حقه كملاً : وافياً » (45) . أما اصطلاحا يؤتى به لتكميل المعنى وزيادته زيادة واضحة؛ أي بسطه للفهم ويكون بعد التمام ، وفوق التتميم ولكن التتميم يأتي ليتم ما نقص ، ولو حذف من الكلام لواقعه النقص شانه العي ، وقد أورد من التكميل قول كعب بن سعد :

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب

و يعلق شهاب الدين الحلبي : « إذا بعض التغاضي قد يكون من عجز وإنما يزيد الحلم أهله إذا كان عن قدرة قم رأى أن يكون مدحه بالحلم وحده غير كامل ، لأنه إذا لم يعرف منه إلا الحلم طمع فيه عدوه فقال : (في عين العدو مهيب) »(46) ويعرفه صاحب الفوائد بقوله : « هو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح أو غيره من فنون النظم والنثر ثم يرى مدحه فيه اقتصاد وقصور عن الغرض وأنه يحتاج إلى تكميل يزيد بيانا وإيضاحا فيكمله بمعنى آخر » (47) وقد وقع التكميل في القرآن الكريم بمفهومه الخالص في حوالي ثلاثة عشر موضعا ، تضمنتها خمسة أغراض هي :

1 . الإطلاق والتوسيع :

و يرد التكميل في الخطاب القرآني لتحقيق إطلاق الحكم وتوسيعه ، فينتقل للشمولية والبسط ومن ذلك قوله تعالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(48) فالخطاب أخبر عن حرثية النساء للرجال في النكاح وقد تم الخبر ، فأراد الله تعالى أن يكمل بهذه الزمنية المطلقة فقال : (فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) .

2 . التقييد والتضييق :

و يأتي التكميل في القرآن للتقييد والتضييق ومثاله قوله تعالى : ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾(49) ورد التكميل في (إِذْ ظَلَمْتُمْ) لتقييد حكم الاشتراك في العذاب .

3 . دفع الشبهة والمظنة :

و يرد هذا التكميل لتثبيت القصد ودفع مختلف الشبه عنه وفي قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(50) وقد ورد التكميل (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) لئلا يتوهم إن إحطام

سليمان وجنوده للنمل يكون عن قصد ومعرفة .

4 . بيان القدرة :

و يأتي التكميل ليبين قدرة الله تعالى وعظيم صنيعه يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(51) فقد جاءت فاصل الآية تكميلا يوضح قدرة الله ومدى تصرفه فيه .

5 . التصوير والتجسيم :

ورد التكميل خادما لهذا الغرض في آية واحدة في قوله تعالى : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(52) فالتكميل في ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ويفيد أنهم لا يقصدون ويشيرون إلى صور المسلم .

ثالثاً : الزيادة :

1 . في الجمل معنويا :

و من صور إطناب البسط الزيادة في الآيات القرآنية ، سواء على مستوى الجملة الواحدة ، أو بإضافة جمل تسهم في إتمام الصورة القرآنية أو مقام الخطاب . والباحث الفاحص في زيادات القرآن الكريم يتلمس سحرها وبيانها وقوة إعجازها ، يتذوقها من خلال السياق ، ولعل الزيادة القرآنية لها علاقة بالزيادة في المعنى لدى المبدعين من الشعراء والكتاب قديما وحديثا فما يتصل بالزيادة بأشكال في الخطاب القرآني وهي : الإغراق ، والغلو ، والمبالغة ، وسنعرض لهذه المصطلحات :

أ . الإغراق :

فالإغراق صورة من الإطناب صور في المعنى ، يسهم في القرآن الكريم ببيان المعاني وتصوير المراد بها بحيث يحمل بلاغة وبيانا قد لا نلمسهما في الشعر والنثر ، ومن أمثلة الإغراق قوله تعالى : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(53) فقد صور الله تعالى ما أحيط بالقوم من الهلاك ، فأغرق في ذلك التصوير بأن إتيانهم كان من كل مكان ، وأن قلوبهم قد تأثرت بذلك ؛ فزاغت

الأبصار وبلغت قلوبهم الحناجر وهم يظنون بالله الظنون .

ب. الغلو :

الغلو أكثر في تجاوز مقدار المعنى من الإغراق ، وقد ورد في القرآن في قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(54) .

ج. المبالغة :

و هي زيادة في الوصف والمدح والذم ، وهي من طبيعة العرب ، وقد قسمها الدارسون إلى قسمين؛ أولها في اللفظ ، والآخر في المعنى ، ويجعل من القسم الأول التوكيد المعنوي بالنفس أو العين ، وهو درس نحوي معروف . ، وقد جهل السجلماسي المبالغة غاية للإطناب ؛ فيقول في معرض حديثه عن الإطناب : « و الإطناب هو ترديد اللفظ الواحد بعينه ، وبالعدد أو النوع مرتين فصاعدا في القول لقصد المبالغة » (55) فقد تكون المبالغة غرضا من أغراض الإطناب ولكنها لا تكون الهدف الوحيد والغاية العظمى .

لا يفهم من وقوع المبالغة في كتاب الله انتقاصا من قدر كلامه تعالى جلا وعلا « و إنما تأتي المبالغة حاملة معها بلاغة وحسن بيان لا يكونان في غيرهما ، وبخاصة في مقامات الحديث عن ذاته ـ سبحانه ـ أو مقامات التهويل للكفار ، أو بشرى المؤمنين » (56) وترد المبالغة في كتاب الله تعالى تصويرا للأحوال والمواقف وتجسيدا لها قال الله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(57) يقول ابن وهب : « و إنما قالوا : إنه قدر علينا؛ فبالغ الله عز وجل في تقبيح قولهم فأخرجه على غايات الذم لهم » (58) .

2. زيادة الحرف :

الزيادة تكون في الجملة الواحدة بحرف أو نحوه ، كما تكون في الجمل المتعددة ، ولزيادة الحرف قيمة بلاغية لا تنكر في سياق الكلام ، حيث يقول السيوطي : « وسئل بعضهم عن التأكيد بالحرف وما معنا إذ إسقاطه لا يخل بالمعنى ؟ فقال : هذا يعرفه أهل الطباع يجدون من زادة

الحرف معنى لا يجدونه بإسقاطه . . . فكذلك هذه الحروف تتغير نفس المطبوع بنقصانها ويجد في نفسه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانها » (59) . ومن الزيادة في الجملة الواحدة (رأيته بعيني ، وطئته بقدمي ، ذقته بفمي) .

كما أن هذه الزيادة وإن اعتراها النقص في بعض الأحيان من جهة البلاغة ، فهي في الخطاب القرآني تمثل قمة البلاغة وشهدا من البيان ونورا من الإتقان ودليلا على إعجازه البياني التبليغي ، يدل عليه واقع النص ، وتشير إليه الآيات البنيات الكريمات ، فإذا اقتربنا من شواهد النص القرآني في هذا الفصل وجدنا إعجازا في زيادته لا نجده عند حذفها أو مظنة الاستغناء عنها .

و من مواضع الزيادة بالحرف في القرآن الكريم قوله تعالى في فاتحة الكتاب : ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾(60) حيث زيدت (لا) يقول صاحب مجاز القرآن : « مجازها غير المغضوب عليهم والضالين ، و(لا) من حروف الزوائد لتتميم الكلام »(61) وأفادت (لا) تأكيدا على طلب الصراط على الذين أنعم الله عليهم دون غضب عليهم أو من ضلوا .

و في القرآن الكريم أمثلة عديدة على زيادات الحروف التي وظفت للتأكيد وزيادة المعنى قوة ووضوحا ولتحصيل غايات إيمانية قصد إليها الخطاب القرآني بإعجازه ودقة تعبيره وبعد نظره .

3 . زيادة الاسم :

قد يزاد الاسم في الخطاب القرآني ، وتحصل له بلاغة تفتقد بحذفه ، ونورد قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(62) إن تقدير الكلام : (فأتوا بسورة منه) فزاد لفظ (مثل) و(الهاء) في (مثله) تعود على القرآن أي : فأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم . ويظهر هنا التعجيز للكفار على الإتيان بمثله يقول الطبري : « و إنما عني ائتوا بسورة من مثله في البيان ، لأن القرآن أنزله الله بلسان عربي ، فكلام العرب لا شك له في معنى العربية ، فأما في المعنى الذي باين به القرآن سائر كلام المخلوقين فلا مثل له من ذلك الوجه ولا نظير ولا شبيه »(63) كما جاءت زيادة (مثل) في الآية الكريمة تعكس ضعف المتحدين وقلة حيلتهم ــ إلى جانب تحدى الكفار في قولهم

وبلاغتهم ـ وأنهم لا يملكون القدرة على مجابهة القرآن العظيم ؛ فالله تعالى لا يدعوهم إلى الإتيان بسورة من القرآن ، وإنما يدعوهم إلى الإتيان بسورة من مثل القرآن فإن وقعت المعجزة واستطاعوا ذلك ـ ولن تتحقق أبدا ـ فلم يكن ما جاءوا به قرآنا وإنما مثلا له فقط ، وشبيها به . وأكيد أنهم عجزوا حتى على ذلك المثل أو الشبه عجزا أزليا أديا ، والتحدي قائم إلى يوم الدين فيهم وفي أمثالهم ، وقد عرفوا بالبيان والفصاحة والبلاغة ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(64) ذكر الله تعالى طائرا يطير ، وأردف بجناحيه والطائر لا يطير إلا بجناحيه . وهذا كقول القائل : كلمته بفمي ومشيت إليه على رجلي ، وفي ذلك للمفسرين لطائف جميلة ممتعة عن البلاغة القرآنية .

4 ـ زيادة الفعل :

لم يرد هذا النوع من الإطناب كثيرا في القرآن الكريم؛ إذ تركز في موضعين اثنين؛ فالأول في قوله تعالى : ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(65) والتقدير : (بما لا في الأرض) أو (بما ليس في الأرض) ، فقد أراد الله تعالى أن يقرن تكذيبهم وسوء صنيعهم بصدقة وحسن خطابهن كما يجمع الفعل (يعلم) المختص بلفظ الجلالة وبين ضعفهم الدائم . أما الموضع الثاني ففي قوله تعالى : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(66) يعلق الزركشي على الزيادة البديعة الرائعة هنا فيقول : « (كان) هنا زائدة؛ وإلا لم يكن فيه إعجاز؛ لأن الرجال كلهم كانوا في المهد » (67) ،قد أحاطت الزيادة الخطاب القرآني هنا بلاغة لم تتوفر في غيرها ، وساهمت في إتمام بيان الآية وإعجازها ، وأضاءت المعاني .

5 ـ زيادة الجملة :

تكسب الزيادة في الجملة السياق القرآني بلاغة تفتقد بحذفها ، ويتغير المعني فهذا من جماليات الزيادة في الإطناب ، ونورد قوله الله تعالى كمثال : ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾(68) وتظهر الزيادة في جملة ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ، حيث كانت مشارا للظن على القرآن؛ إذ عن الثلاثة والسبعة عشر وذكر هذه الجملة ليكون إيضاحا وتفصيلا لما هو واضح . وكذلك « لإزالة الإبهام لئلا يظن أن الواو بمعنى

(أو) فيكون كأنه قال : (فصيام ثلاثة أيام أو سبعة إذا رجعتم) لأنه يجوز استعمال (الواو) بمعنى (أو) كما استعمل في قوله تعالى من سورة النساء الآية 3 ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ فإنه أطلق الواو وأريد منه (أو) »(69). ولا يخفى على الناظر المتذوق ما أضفته هذه الزيادة على الأسلوب من جمال البيان وبلاغة الإبلاغ أسهما في إيضاح الغاية من الآية الكريمة ، وتنبيه المؤمن لشرع الله . فبعد ذكر الثلاثة والسبعة قال تعالى : ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي فاعلمها وانتبه إليها واحرص عليها ؛ فبها يصح حجك .

6 ـ زيادة الجمل :

و من صور الإطناب بالزيادة زيادة جمل عديدة في السياق القرآني مثل قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(70) حيث أطنبت الآية الكريمة أبلع إطناب ليكون الخطاب على لسان سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ : (شحت) وإنما جاءت الآية على هذه الصورة لتجنح للشمول وتهوين كل إنسان من العظم ، وكمال اشتعال الرأس الذي لا مناص منه .

و من زيادات الجمل التي تسمى (النفي والإثبات) في قوله تعالى : ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (71) يظهر النفي العام في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يخبرنا من ظاهره أنهم غير عالمين يعلم الدنيا وحقائق على الآخرة ، ومفهومها أنهم معهم علما من ظاهر الدنيا ، فإذا قال بعد ذلك : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كان إطنابا زائدا بفائدة وهو تبين غفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها (72).

إن الزيادة في القرآن لها موضعها وبلاغتها في القرآن الكريم ، ولها وجهها وقيمتها الثمينة في النص؛ بحيث لا يزاد حرف أو كلمة إلا وكانت زيادتها بلاغة وإيضاحا وتبيينا ما ليس في حذفها ، ولا تستفاد بدونها وكل ما « عده زائدا ، إنما هو حروف نادرة ، جيء بها لأغراض بلاغية معناه أنها لا يرتبط بها حكم إعرابي ، لا تؤد في الجملة معنى » (73). كما يجب أن لا نفهم أن الزائد في القرآن يعني « الحشو والتطويل اللذين لا فائدة منهما ولا حاجة إليهما ، فهناك فرق بين الإطناب بالزيادة والحشو آو التطويل .

3 ـ جمالية إطناب البسط :

بعد أن تعرفنا على أدوات إطناب البسط التي تشكل بالفعل جمالية إعجازية في الخطاب القرآني؛ لما يؤديه الإطناب بشكل عام من ملامح عديدة « منها تثبيت المعنى ، وتوضيح المراد ، والتوكيد ، ودفع الإبهام »(74) فقد عده الكثير من البلاغيين ضربا من ضروب التأكيد بقصد المبالغة في الكلام ، وتأدية مقاصده فهو طول في اللفظ يتبعه طول في المعنى ، وفرقوا بينه وبين التطويل في البلاغة العربية ، وفرقوا أيضا بين الدواعي النفسية لإطناب البسط والآثار السلبية لكل من التطويل والحشو ، فالفرق بين « الإطناب المحمود في البلاغة وبين التطويل الذي يفقد النص قيمته وحويته وقدرته في التأثير والإثارة ، واعتبروه من عيوب الكلام . ذلك لأن بسط الكلام والإطناب فيه لا يكون حسنا وفي المقام الذي يقتضيه ، إلا إذا كان لفائدة يجنيها المتلقي من خلاله ويستفدها منه ، وإلا إذا خلا من الحشو الزائد عن المطلوب ، وذلك لأن إطالة الكلام في حد ذاتها ، تورث السأم وتجهد المتلقي ، ولا يلجأ إليها إلا لضرورة ودواع نفسية أشرنا إليها فإن النفس تنفر من كل ما يجهدها »(75) .

استعان إطناب البسط من اجل طرح المعاني والوقوف عليها تأكيدا وتبينا للمتلقي ، وحرصا على تبليغ الخطاب في أكمل صوره وأبهى حلله البلاغية ، لذا استعان بجملة من الأدوات أو الوسائل تمثل جماليات حقيقة لا نجدها إلا في الخطاب القرآني ، هذه الوسائل التي قامت بهذه المهمة الجليلة الكريمة في آياته؛ وهي التتميم الذي ساهم في كشف جواهر الكلام وأجلى القصد منه وأوصل التشريع المقصود من وراء كل المعاني ، جمعت في سبعة أغراض (بيان العاقبة والحث على الطاعة والتأكيد والاحتراز والمبالغة التخصيص والشمول والتعظيم والتنزيه) ، والتكميل المختلف على التتميم وقد ورد في خمسة أغراض ـ وضحنا سابقا ـ وكذلك الزيادة على مخلف مستوياتها الاسم والفعل والحرف والجملة والجمل ، فهذه الشروح التي فسرها البلاغيون والمفسرون على أنها إطناب بسط ونوع من أنواعه ، شكلت جمالية بلاغية ساهمت بشكل فعال وواضح في إبلاغ الخطاب القرآني للمتلقي وجعل صالحا في زمان ومكان ، فهو معجزة خالدة لا تنقضي عجائبها .

كما يهدف إطناب البسط إلى الإفهام ، وذلك الإفهام مضافا إلى بيانه ،

كما يدلنا على أنه شامل لأساليب التعبير جميعا ، من شعر ونثر ، وبالأحرى كان سبيلا لإثبات بلاغة النص القرآني ، هذه البلاغة التي تعد مميزا من مميزاته ، وأثر من آثاره ، وعلامة من علامات وجوده التي يتحقق بها إعجازه ، ويشهد له بها بالكمال ، فهذا الخطاب الذي تحدى أرباب البلاغة وأساطين القول ، جعل من الإطناب وسيلة لإبلاغ أحكامه الشرعية وآدابه الأخلاقية ، وتوجيهاته التربوية للمجتمع الإسلامي ، وبرهن بوسيلة كانت عند العرب مثالا للتطويل وفساد الفصاحة وقلة المعاني ، على جودة خطابه وتميزه وشريف مقصده ، بمختلف الأدوات والأشكال التي تندرج تحت الإطناب البسط .

تكمن جمالية هذا اللون البلاغي الذي ظهر في الخطاب القرآني في توظيفه جملة من الآليات التي عكست البلاغة القرآنية وذلك من خلال التتميم الذي ظهر له سبعة أغراض بلاغية والتكميل خمسة أغراض تبين جميعها قيمة كل منها داخل السياق ، كما تظهر الجمالية في الزيادة في الجملة التي تتصل ببعض جوانب إطناب البسط من حيث زيادة المعنى ، كخاصية الإغراق والتطويل والغلو ، والمبالغة .

و لقد بينا من خلال إطناب البسط الدور الذي اضطلع به في شرح الأحكام ، والمقاصد والأخبار التي أرسلها الله تعالى لعباده ، فهذا الخطاب قد بسط المعاني في دقة وبلاغة وجمال لغوي وأسلوبي ، في شكل الإطناب الذي عده الدارسون أحد ملامح الإعجاز البلاغي في الخطاب القرآني .

هوامش البحث :

1 ـ أبو عمرو الشيباني ، كتاب الجيم ، تحقيق عبد العليم الطحاوي ومحمد مهدي علام ، طبعة مجمع اللغة العربية ، 1975 ، (باب الحاء) ، ص 75 .
2 ـ الزمخشري ، أساس البلاغة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 3 ، 1985 ، مادة طنب ، ج 1 ، ص 292 .
3 ـ المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 292 .
4 ـ المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 292 .
5 ـ المرجع نفسه ، ج 1 ، ص292 .
6 ـ ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، مادة طنب ، ج1 ص 560 .
7 ـ المرجع نفسه ، ج1 ، ص 563 .
8 ـ علي بن محمد الجرجاني ، التعريفات ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1985 ، ص46 ـ 74 .
9 ـ الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1977 ، ج 1 ، ص 91 .
10 ـ الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ود محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 ، 1968 ، ص 78 ـ 79 .
11 ـ أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، د ت ، ص 209 .
12 ـ) الصيرفي ، نكت الانتصار لنقل القرآن ، تحقيق محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، مصر ، 1971 ، ص 251 .
13 ـ السجلماسي ، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، تحقيق علال الغازي ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ط1 ، 1980 ، ص 224 .
14 ـ ابن قيم الجوزية ، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ، مكتبة الهلال ، بيروت ، د ت ، ص 154 .
15 ـ أحمد مصطفى المراغي ، علوم البلاغة ، المكتبة المحمودية التجارية ، 1972 ، ص 196 .
16 ـ محمد أبو زهرة ، المعجزة الكبرى ـ القرآن ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1970 ، ص 305 .
17 ـ بكري شيخ أمين ، البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، دار العلم للملايين ، ط1 ، 1979 ، 194/1 .
18 ـ مجيد عبد الحميد ناجي ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1984 ، ص 141 .
19 ـ درويش الجندي ، علم المعاني ، دار نهضة مصر ، 1962 ، ص 162 .
20 ـ أحمد مطلوب ، أساليب بلاغية ، طبعة وزارة الثقافة العراقية ، 1980 ، ص 230 .
21 ـ رجاء عيد ، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، منشأة المعارف ، مصر ، 1979 ، ص 238 .
22 ـ مصطفى الصاوي الجويني ، البلاغة العربية تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف ، مصر ، 1985 ، ص 47 .
23 ـ أحمد النادي شعله ، علم المعاني ، دار الطباعة المحمدية ، 1980 ، ص 280 .
24 ـ عبد الفتاح لاشين ، المعاني في ضوء أساليب القرآن ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1978 ، ص 352 .
25 ـ الزمخشري ، أساس البلاغة ، مادة بسط ، ج1 ، ص 23 .
26 ـ المرجع نفسه ، مادة ت م م ، ج1 ، ص 56 .
27 ـ قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط1 ، 1978 ، ص 144 .
28 ـ نفس المرجع ، ص144 .
29 ـ أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص 380 .
30 ـ عبد القادر حسين ، فن البلاغة ، مطبعة الأمانة ، مصر ، 1977 ، ص 202 .

31 ـ العنكبوت ، 27 .
32 ـ البقرة ، 16 .
33 ـ الشريف الرضي ، تلخيص البيان في مجازات القرآن ، تحقيق د علي محمود مقلد ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1986 ، ص 30 ـ 31 .
34 ـ غافر ، 7 .
35 ـ البقرة ، 177 .
36 ـ القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، دار الجيل ، بيروت ، د ت ، ص 313 .
37 ـ فصلت ، 6 .
38 ـ النحل ، 14 .
39 ـ فصلت ، 30 .
40 ـ النساء ، 124 .
41 ـ آل عمران ، 117 . .
42 ـ الأنبياء ، 112 .
43 ـ النحل ، 97 **.**
44 ـ لقمان ، 16 **.**
45 ـ الزمخشري ، أساس البلاغة ، مادة (ك م ل) ، ج 1 ، ص 412 .
46 ـ شهاب الدين الحلبي ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، 1980 ، ص 277 .
47 ـ ابن قيم الجوزية ، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ، ص 132 .
48 ـ البقرة ، 223 .
49 ـ الزخرف ، 39 .
50 ـ النمل ، 17 .
51 ـ لقمان ، 34 .
52 ـ الفتح ، 25 .
53 ـ الأحزاب ، 10 .
54 ـ البقرة 20
55 ـ السجلماسي ، النزع البديع ، ص324 .
56 ـ فتحي عامر ، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، منشأة المعارف ، 1976 ، ص 42 .
57 ـ المائدة ، 64 .
58 ـ ينظر : ابن وهب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق حفني شرف ، مكتبة الشهاب ، 1969 ، ص123 .
59 ـ السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، د ت ، ج 1 ، ص339 .
60 ـ الفاتحة ، 7 .
61 ـ أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، ج 1 ، ص 52 .
62 ـ البقرة ، 23 .
63 ـ الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن ، دار الحديث ، مصر ، 1987 ، م 1 ، ص 129 .
64 ـ الأنعام ، 38 .
65 ـ الرعد ، 33 .
66 ـ مريم ، 29 .
67 ـ الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، د ت ، م 3 ، ص 71 .
68 ـ البقرة ، 196 .

69 ـ خليل ياسين ، أضواء على متشابهات القرآن ، دار مكتبة هلال ، بيروت ، د ت ، ج 1 ، 98 .
70 ـ مريم ، 4 .
71 ـ الروم ، 6 ـ 7 .
72 ـ انظر الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، م3 ، 199 .
73 ـ أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، دار نهضة مصر ، مصر ، 1978 ، ص102 .
74 ـ الهاشمي ، جواهر البلاغة ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط12 ، 1986 ، ص 172 .
75 ـ مجيد عبد الحميد ناجي ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، ص 141 .

مصادر البحث ومراجعه:

1/ ابن قيم الجوزية ، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ، مكتبة الهلال ، بيروت ، د ت .
2/ ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط1 .
3/ ابن وهب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق حفني شرف ، مكتبة الشهاب ، 1969 .
4/ أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي .
5/ أبو عمرو الشيباني ، كتاب الجيم ، تحقيق عبد العليم الطحاوي ومحمد مهدي علام ، طبعة مجمع اللغة العربية ، 1975 .
6/ أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 2 ، د ت .
7/ أحمد النادي شعله ، علم المعاني ، دار الطباعة المحمدية ، 1980 .
8/ أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، دار نهضة مصر ، مصر ، 1978.
9/ أحمد مصطفى المراغي ، علوم البلاغة ، المكتبة المحمودية التجارية ، 1972 .
10/ أحمد مطلوب ، أساليب بلاغية ، طبعة وزارة الثقافة العراقية ، 1980 .
11/ بكري شيخ أمين ، البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، دار العلم للملايين ، ط1 ، 1979 .
12/ خليل ياسين ، أضواء على متشابهات القرآن ، دار مكتبة هلال ، بيروت ، د ت .
13/ درويش الجندي ، علم المعاني ، دار نهضة مصر ، 1962 .
14/ رجاء عيد ، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، منشأة المعارف ، مصر ، 1979 .
15/ الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ود محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر ، ط 2 ، 1968 .
16/ الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، د ت .
17/ الزمخشري ، أساس البلاغة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 3 ، 1985 .
18/ السجلماسي ، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع ، تحقيق علال الغازي ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ط1 ، 1980 .
19/ السيوطي ، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، بيروت ، د ت .
20/ الشريف الرضي ، تلخيص البيان في مجازات القرآن ، تحقيق د علي محمود مقلد ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1986 .
21/ شهاب الدين الحلبي ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، 1980 .
22/ الصيرفي ، نكت الانتصار لنقل القرآن ، تحقيق محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، مصر ، 1971 .
23/ الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن ، دار الحديث ، مصر ، 1987 .
24/ عبد الفتاح لاشين ، المعاني في ضوء أساليب القرآن ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1978 .

25/ عبد القادر حسين ، فن البلاغة ، مطبعة الأمانة ، مصر ، 1977 .

26/ علي بن محمد الجرجاني ، التعريفات ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1985 .

27/ فتحي عامر ، المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، منشأة المعارف ، 1976 .

28/ الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1977 .

29/ قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط1 ، 1978 .

30/ القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، دار الجيل ، بيروت ، د ت ص 313 .

31/ مجيد عبد الحميد ناجي ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1984 .

32/ محمد أبو زهرة ، المعجزة الكبرى ـ القرآن ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1970 .

33/ مصطفى الصاوي الجويني ، البلاغة العربية تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف ، مصر ، 1985 .

34/ الهاشمي ، جواهر البلاغة ، دار الفكر العربي ، بيروت ، ط12 ، 1986 .